مؤتمر دولي حول بديع الزمان سعيد النورسي

بقلم: محمّد حلمي عبدالوهّاب – شاركتُ، على مدى ثلاثة أيام، 1-3 تشرين الأول (أكتوبر)، في فعاليات المؤتمر العالمي الحادي عشر لبديع الزمان سعيد النورسي، الذي أقامته مؤسسة اسطنبول للثقافة والعلوم، والذي كان مقرراً عقده العام الماضي وأُجّل بسبب محاولة الانقلاب الفاشلة في تموز (يوليو) 2016. وقد عُقد المؤتمر تحت عنوان: «العمل الإيجابي البنّاء في ضوء القرآن الكريم والسُنّة النبوية»، بمشاركة أكثر من 100 متحدث من مختلف بقاع العالم وباللغات التركية والعربية والإنكليزية. وكانت مشاركتي بعنوان: «مركزية التربية الروحية وفاعليتها في فكر بديع الزمان سعيد النورسي».

في الواقع، ليس من قبيل المصادفة أن يكون الدّرس الأخير، الذي ألقاه النورسي قبيل وفاته على طلبة النّور، بعنوان: «حول العمل الإيجابي البنّاء». فقد قضى صاحب الدّرس حياته كلّها في سبيل غاية كبرى تُعَدّ، في رأيه، غاية الغايات، ألا وهي: «العمل الإيجابيُ البنّاء»، في مقابل سَعْي الآخرين «للعمل السّلبي الهدّام»!، وكأنه بذلك يُشدّد على «مركزية» هذا المسعى باعتباره «الكلمة الأخيرة»، بعد أن أتمّ رسالته التّربوية الرّوحية التّزكوية على أكمل وجه. وهو ما أكده في رسالته الأخيرة، وشدّد عليه بالقول: «إن واجبنا القيام بأعمال إيجابية بنّاءة وليست تخريبية سلبية، بل القيام بوظيفة الإيمان ابتغاء مرضاة الله وحده لا غير ومن دون التدخل في أمور موكولة إليه تعالى. فنحن مكلّفون أن نصمد صابرين على كل المضايقات لأجل إحلال النظام واستتباب الأمن في ربوع البلاد».

وضمن هذا المسلك، تتوضّح قواسم مُشتركة تُعدّ بمثابة منظومةٍ للقيم العُليا التي يتعيّن على «سالك النّور» أن يبتغيها في نفسه وسلوكِه؛ امتثالاً لمبادئ الدّستور القرآنيّ من ناحية، وتأسّياً بنهْج الشّيخ/ الأستاذ في التّربية الرّوحيّة من ناحية أخرى. فمن جهة أولى، هناك الثبات على المبادئ، والوقوف ضدّ كلّ مظاهر التّحكّم والتّسلّط والاستبداد التي عايشها وعانى منها طلبة النور وأستاذهم النورسي. ومن جهة أخرى، هناك التّخلّق بفضائل العفو والرّحمة والتّسامُح، قياماً «بالخدمة الإيمانية ضمْن نِطاق الرّضى الإلهيّ» أولاً، وأخذاً بعين الاعتبار

«أنَّ المسألة الأساسية في هذا الزَّمان إنَّما تتعلَّق بالجهاد المعنويِّ، وإقامة السَّدِّ المنيع أمام التَّخريبات المعنوية، وإعانة الأمن الدَّاخلي بكلِّ ما نملكُ من قوَّةٍ، اتِّباعاً لدستُورِ الآية الكريمة: «وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» ثانياً.

ولا شك في أن الحديث عن مفهوم «العمل الإيجابي البنَّاء» في رسائل النُّور، قد أوجب علينا أن نُقارب -من هذه الزَّاوية تحديداً- مسار ومسيرة النورسي في حياته العملية، بوصفها تجلِّياً أمْثَل لِتَعَيُّن وتَشَكُّل هذا المفهوم/ المبدأ في شخصه وسلوكه ومواقفه العملية، التي رسمتْ لجموع السَّالكين سُبُل «التَّخلِّي» عن ضرُوب الأنانية والطَّمع وحبِّ النَّفس، كما رسمتْ لهم أيضاً معالِمَ «التحلِّي» بأخلاق التَّضحية والتَّفاني والإخْلاص الحقيقيِّ للَّه عزَّ وجلَّ.

ومما لا شكَّ فيه أيضاً، أنَّ النُّورسي قد وجَّه جزءاً كبيراً من عنايته إلى مسألة «التَّربية الرُّوحية»، أو بالأحرى «التَّزكية»، كيف لا؟ وهي مفتاح الفهْم لكلِّ عملية تربوية تبغي إخراج جيلٍ قرآنيٍّ ربانيٍّ يُساهم من خلال «العمل الإيجابيِّ البنَّاء» في خلافة الأرض وعمارتها، والقيام بمسؤوليات الأمانة الملْقاةِ على عاتقه بحكم اختياره وحمله لها؟! فبفضل «التَّربية الرُّوحية» التي نالها في صغره وما تضمنتْهُ من مجاهداتٍ تشبَّع النُّورْسِي بالحقائق المكنونة في القرآن والسنة، حتَّى أنه وصف كتابه «الكلمات» بأنَّه كتابٌ «يبحثُ في علم الحقيقة؛ حقيقة الشَّريعة، حكمةِ القرآن الكريم»، الحكمة التي كانت بالنِّسبة إليه دليلاً ومرشداً، فأعلن على رؤوس الأشْهاد: «لأُبرْهِنَنَّ للعالم بأنَّ القرآن شمسٌ معنويةٌ لا يخبو سناها، ولا يمكن إطفاءُ نورها».

وانطلاقاً من القرآن الكريم، الذي حثَّ في آيات كثيرة على ضرورة التَّزكية، واتِّساقاً مع تركيز النُّورسي على الجانب العمليِّ في التَّربية الرُّوحيَّة، أكدَّ بديع الزَّمان أنَّ الطَّرائقِ إلى الخالق عزَّ وجلَّ كثيرة ومتعدِّدة، لكنَّ مردَّها جميعاً إلى القرآن الكريم، ويُتابع قائلاً: «وقد استفدتُ من فيض القرآن الكريم طريقاً قصيراً وسبيلاً سوياً، هو: طريق العجْز، الفقْر، الشَّفقة، التَّفكُّر». ويدلِّل النُّورسي على طريقه المختصر للسَّالكين بمنطق الثنائيات، فـ «العجزُ كالعشْق طريقٌ مُوصِّلٌ إلى الله، بل أقرب وأسلم، إذ هو يُوَصِّلُ إلى المحبوبية بطريق العبوديَّة. والفقر مثله يُوصِّل إلى اسم الله (الرَّحمن)، وكذلك الشَّفقة كالعشْق مُوصِّلَةٌ إلى الله، إلاَّ أنَّها أنفذُ منه في السَّير وأوسعُ منه مدى، إذ هي تُوصِّلُ إلى اسم الله

(الرَّحيم). والتَّفكُّر أيضاً كالعشْق، إلا أنَّه أغْنى منه وأسطع نوراً وأرحب سبيلاً، إذ هو يُوصِّل السَّالك إلى اسم الله (الحكيم)».

وتأكيداً على «مركزية التّزكية» في منهج الأستاذ النورسي التَّربويِّ العمليِّ، نراه يشدِّد -في أكثرِ من موضع- على ضرورة التَّزكية بوصفها تُمثِّل المنبع الأول للطَّريق الصُّوفي الصحيح. يقول في ذلك: «أمَّا منابع هذه الخطوات الأربع من القرآن الكريم، فهي: «فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ» التي تُشير إلى الخطوة الأولى (العِجز). «وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ» التي تشير إلى الخطوة الثانية (الفقر). وقوله تعالى «ما أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ * وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ» التي تشير إلى الخطوة الثالثة (الشفقة). وقوله تعالى «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ» التي تشير أخيراً إلى الخطوة الرابعة (التفكُّر).

ولعلَّ ذلك كان سبباً قوياً في اكتسابه تلك القُدرة الفريدة المتعلقة بتحويل «المحن» العديدة التي مرَّ بها إبَّان مختلف أطوار حياته، إلى «منحٍ» إلهيَّة، وصولاً إلى تحوُّله هو شخصياً من «سعيد القديم» إلى «سعيد الجديد»، وما رافق ذلك من منطق الثنائيات الحاكم لمسارِ حياته: فمنْ مهمَّة إنقاذ الخلافة إلى مهمَّة إنقاذ الإيمان، ومن مسْلك الزُّهْد إلى خدْمة القرآن، ومن الصَّحْوة الرُّوحية بعد الوقوع في الأسْر إلى انزوائه في تلِّ يُوشَعْ وتحوُّلِه إلى «سعيد الجديد» بانكشافٍ روحانِيٍّ وانقلابٍ قلبيٍّ وفكريٍّ، ومن مسلك التَّفكُّر والتَّأمُّل إلى ثلاثية: العجز والفقر والشَّفقة، ومن مخايل النُّبوغ في عهد الصِّبا وتلقُّبِه ببديع الزَّمان إلى حصول الانقلاب الفكريِّ واتِّهامه بالجنون وإيداعه مستشفى المجانين، ومن الاشتغال بالعلوم العقلية «الكسْبيَّة» إلى حصول المعرفة الإلهيَّة «اللَّدُنِيَّة»، ومن الظَّلام الرُّوحي الناتج من الاشتغال بالفلسفة إلى تحقُّق الاستنارة عن طريق القرآن وإزالة العوائق عن طريق القلب، ورحلة النَّفس في البحث والتحرّي عن أذواقٍ معنويةٍ بدلاً ممَّا افتُتِنَتْ به من أذواقٍ.

ولهذا كله، يُمكننا اختصارُ مراحل السَّير والطَّلب نحو «سعيد الجديد» -فيما يتعلق بموضوعنا- في النِّقاط الأربع التالية: التَّخلُّص من أسقام الاشتغال بالفلسفة، والإقرارُ بأنَّ القرآن هو الأستاذُ الحقيقيُّ، والاقتداءُ ببعض عظماء أهل الحقيقة انتهاءً بالجمع بين الطَّريقة والحقيقة ببركة فيض القرآن الكريم وإرشاده،

والإيمانُ بفعالية دوره في الوعظ والإرشاد وخدمة الإيمان، وأنّه «عالِمٌ دينيٌ، مكلّفٌ شرعاً بإفادة الناس»، وقَطْعُ المقامات على طريقة الإمام الغزالي، وصولاً إلى خلاص نفسه من الوساوس والأوهام، وبِخَلاصِهِ منها انقلَبَ «سعيدُ القديمُ» إلى «سعيدٍ الجديد». يقول النّورسي مُعبّراً عن حاله الجديد، وما لازمه فيه من ثلاثية: العناية الأزليّة، والهداية القرآنيّة، وغوث الرّحمة الإلهيّة: «إنّي قد ساقني القدرُ الإلهيُّ إلى طريقٍ عجيب، صادفتُ في سيري فيه مهالِكَ ومصائِبَ وأعداءً هائلةً، فاضطربتُ، فالتجأتُ بعجزي إلى ربّي فأخذتِ العنايةُ الأزليّة بيدي، وعلّمني القرآنُ رُشدي، وأغاثتْني الرّحْمةُ فخلّصتْني من تلك المهالك».

وبالعودة إلى الحديث عن مفهوم «العمل الإيجابيّ البنّاء»، فإنّنا نُلاحظ تأكيد النّورسي على هذا المنْحى، من خلال ربطه بشبكة «المفاهيم المِفْتاحيّة» الدّالة على «مركزيّة التّربية الرّوحيّة» في فكره. وليس أدلّ على ذلك مما قاله عند تفسيره الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾: من أنّ الشعور «الإيجابيّ ينْتعش بنمو الشّفقة على بني الجنس التي تدفع إلى التّعاون والتّعارف. أمّا السّلبي فهو الذي ينشأ من الحرص الذي يُسبّبُ التّناكُر والتّعانُد. والإسلامُ يرفضُ هذا الأخير».

كما يطلب من طلاب النور أن ينظروا إلى ألطاف آثار الرّحمة الإلهية، ويَقْصِدُ بها كلاًّ من: المحبّة والشّفقة والعشق، وكيف أن الهجران الأبديّ لا يُعادِلُ المحبّة ولا يُوازيها. ومن ثمّ، فإنّ رحمة الله تُعَدُّ بنظرِه أعظم وسيلة تتولّدُ منها مظاهرُ شفقةِ الإنسان على بني جنسه، وأنّ أبلغ مثال لها، وأفضل مَنْ يُمثّلُها هو الذي سُمّي في القرآن الكريم «رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ». وما بين دائرتيْ الرّبوبيّة والنّبوة، يتحرّك مقصدُ «التّفكّر الإيمانيّ» الموصِّل إلى معرفة الله تعالى، والذي امتزج فيه النّورسي بقلبِه وعقلِه طيلةَ حياتِه، وصولاً إلى تجلّي اسم «الحكيم» فيه روحاً وقلباً وعقلاً. وهكذا يقودُ العجزُ السّالكَ إلى المحبوبيّة بطريق العبوديّة، ويقودُ الفقرُ المريدَ إلى اسم الله «الرّحمن»، كما تُوصِّلُهُ الشّفقةُ إلى اسم الله «الرّحيم»، وأخيراً يصلُ بواسطة التّفكّر إلى اسم الله «الحكيم». وكلُّ ذلك ليس مقصوراً على السّالك أو المريد في حدود نفسِه وحسب، وليس مُنفصِلاً عن الأبعاد الوظيفيةِ الاجتماعية التي تُرافق مسيرة التّرقّي الرّوحي، وتكون ثماراً لها.

المصدر: الحياة